﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ۝٤﴾ [يوسف: 4]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

قـصّـةُ يـوسـفَ نـمـوذجٌ بـديـعٌ لأحـسـنِ القصص

لَمّا خاطب الله تعالى نبيَّه محمَّدًا ﷺ بأنَّه سبحانه يقصُّ عليه أحسن القَصص الَّتي لم يكن يعلمها هو ولا قومه، ومدحَ ما اشتمل عليه هذا القرآن من القصص، وأنَّها أحسن القصص على الإطلاق، فلا يوجد من القصص في شيء من الكتب مثلُ هذا القرآن، ذكرَ قصّةَ يوسف وأبيه وإخوته، القصّةَ العجيبة الحسنة، فجاءت هذه الآية شروعًا في قصَّةٍ هي من أحسنِ القصص، فقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾: (أبو) الهمزة والباء والواو يدلُّ على التَّرْبِيَةِ والغَذْوِ، أَبَوْتُ الشَّيءَ آبُوهُ أَبْوًا: إذا غَذَوْتَهُ، وبذلك سُمِّيَ الأَبُ أَبًا[2]، والأب: الوالد، ويُسمّى كلُّ مَن كان سببًا في إيجاد شيءٍ أو صلاحه أو ظهوره أبًا، وزادوا في النّداء فيه تاءً، فقالوا: يا أبتِ، والتّاءُ ليستْ بأصلٍ، وإنَّما هي عِوضٌ عن ياءِ المُتكلِّم، والأصلُ: يا أبي[3]، والمُراد في الآية موافقٌ للمعنى اللّغويّ.

2) ﴿رَأَيْتُ﴾: الرّاء والهمزة والياء أصلٌ يدلُّ على نظرٍ وإبصارٍ بعينٍ أو بصيرة، والرَّأْيُ: ما يراه الإنسان في الأمر[4]، والرُّؤية

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/15، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 407، والزّحيليّ، التّفسير المنير: 12/205.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أبو).
(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: (أبو).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رأى).

بالضّمِّ: إدراكُ المَرئيّ، وذلك أضرب؛ الأوّل: النّظر بالعين الّتي هي الحاسّة وما يجري مجراها، والثّاني: بالوهْم والتّخيّل، والثّالث: بالتّفكُّر، والرّابع: بالقلب؛ أيْ: بالعقل[1]، والرُّؤْية بالعين يتعدّى إلى مفعولٍ واحد، وبمعنى العِلم يتعدّى إلى مفعولَيْن، وإذا عُدِّي رأيت بـ (إلى) اقتضى معنى النّظر المُؤدّي إلى الاعتبار[2]، والرُّؤيا: ما رأيتَه في منامك، تقولُ: رأيتُ رؤيا حسنةً، ولا تجمع الرّؤيا[3]، وهذا المعنى الأخير هو المُراد في الآية؛ أيْ: رأيتُ في منامي[4].

3) ﴿كَوْكَبًا﴾: (كبّ) الكاف والباء أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على جَمْعٍ وتَجَمُّعٍ[5]، والكَوْكَبُ: البياضُ في سوادِ العين، والكَوْكَبُ: شِدّة الحرّ ومعظمهُ، والكَوْكَبُ معروفٌ من كَواكِبِ السّماء، ويُشَبَّه به النَّور فيُسَمّى كَوْكَبًا، والكَوْكَبُ: النَّجْم[6]، والكَوْكَبُ من الشَّيْءِ: مُعْظَمُه، ويُقالُ يَوْمٌ ذُو كَواكِبَ بالفتح: أي ذُو شَدائِدَ، كأنَّهُ أظْلَمَ بما فيه من الشَّدائِد، حَتَّى رُئِيَ كَواكِبُ السَّماءِ[7]، والكَواكِبُ: النّجوم البادية، ولا يُقال لها كواكب إلّا إذا بدتْ[8].

والمُراد بالكواكب في الآية: النّجوم وكواكب السّماء.

4) ﴿سَٰجِدِينَ﴾: السّين والجيم والدّال أصلٌ واحد يدلُّ على تَطامُنٍ وذُلٍّ، يُقال سجد: إذا تَطامَنَ، وكلّ ما ذَلَّ فقد سجد[9]، وسَجَدَ: خَضَعَ، ومنه سجود الصّلاة وهو وضْعُ الجَبْهةِ على الأرض، وسَجَدَ إذا انْحَنَى وتَطامَنَ إلى الأرض، والسُّجود، مواضِعُه من الجَسَدِ والأرْضِ[10]، وجُعل السُّجودُ عبارةً عن التّذلّل لله وعبادته، وهو عامّ في الإنسان، والحيوانات، والجمادات؛ وذلك ضربان: سجود باختيار، وليس ذلك إلّا للإنسان، وبه يستحقّ الثّواب. وسجودُ تسخيرٍ، وهو للإنسان، وغيره[11].

(1) الرّاغب، المفردات: (رأى).
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (رأي).
(3) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (رأي).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 15/554.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (كب).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (كوكب).
(7) الزّبيديّ، تاج العروس: (ككب).
(8) الرّاغب، المفردات: (ككب).
(9) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سجد).
(10) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (سجد).
(11) الرّاغب، المفردات: (سجد).

والمُراد بسجود الكواكب في الآية: سجود انحناء وخضوع[1]، وهو بمعنى وضع الجبهة على الأرض؛ إذ لا مانع من حملها على الحقيقة، لكنّها كانت على وجه التّواضع والدّخول تحت أمره[2]، وهو سجود كرامةٍ، كما سجدت الملائكة لآدم[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

رُؤْيـا صـادِقَـةٌ ومـثـيرةٌ تـوحي بـشـأنٍ عـظـيمٍ وسيادةٍ ليوسف عليه السلام

نحن نقصّ عليك - أيُّها الرّسول - أحسنَ القصص قصَّةَ يوسف حين قال لأبيه يعقوبَ بأنَّه رأى في منامه أحدَ عشَر كوكبًا ومعهم الشّمسَ والقمر يسجدون سجود انحناءٍ وخضوع وتواضع، كما يسجد العقلاء، بما يوحي بالشّأنِ العظيم والسّيادة ليوسف[4]. وهذا شروعٌ في بيانِ أحسنِ القصص، وبدايةٌ مثيرةٌ مُجملَة في فصولِ قصّة يوسف، تجتذبُ ذِهْن القارئ والسّامع؛ ليعرف ما هو المصير، وكيف يتمّ حلّ اللّغزِ المُبهم المبدوءِ بقصّ يوسفَ رؤياهُ الغريبةَ على أبيه، وهو طفلٌ صغير[5].

وتُرشدُ الآيةُ الكريمة إلى أنَّ الله إذا أراد أمرًا من الأمور العِظام قدَّم بين يديه مقدِّمةً، توطئةً له، وتسهيلًا لأمره، واستعدادًا لما يَرِد على العبد من المشاقِّ؛ لطفًا بعبده، وإحسانًا إليه، فأوَّلَ يعقوبُ عليه السلام هذه الرّؤيا بأنّ الشّمس: أمَّه، والقمر: أبوه، والكواكبَ: إخوته، وأنه ستنتقلُ به الأحوالُ إلى أن يصير إلى حالٍ يخضعون له، ويسجدون له إكرامًا وإعظامًا، وأنَّ ذلك لا يكون إلّا بأسباب تتقدّمه من اجتباء الله له، واصطفائه له، وإتمام نعمته عليه بالعلم والعمل، والتّمكين في الأرض، وأنَّ هذه النِّعمة ستشملُ آلَ يعقوبَ، الّذين سجدوا

(1) حجازيّ، التّفسير الواضح: 2/160.
(2) الخازن، لباب التّأويل: 2/511، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 4/66.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/238.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/202، وحجازيّ، التّفسير الواضح: 2/160.
(5) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 2/160.

له وصاروا تبعًا له فيها، وأنَّ الرؤيا قد يتأخَّر تأويلها فلا يظهر مصداقُها إلّا بعد السّنين العديدة، إذ وقع تفسيرُ هذه الرّؤيا بعد أربعين سنة، وذلك حين رفعَ يوسفُ أبويه على سرير مُلكه - الّذي كان يجلسُ عليه لمباشرة شؤون الدّولة - وإخوتَه بين يديه: ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَايَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ﴾ [يوسف: 100][1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نكتةُ فصل الآية عن سابقتها:

قصّةُ يوسُفَ هي أحسَنُ القَصَصِ والأخبارِ

فصَل البيانُ القرآنيُّ هذه الآيةَ ﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾ عن الّتي قبلها، ولم يأتِ بالعاطف؛ لِما بين الجملتيْن من كمالِ اتّصال؛ أي: اتِّحاد تامّ في المعنى؛ لأنَّ هذه الآية بدلُ اشتمالٍ، أو بعض من كلٍّ من ﴿أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ على أنْ يكون ﴿أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ بمعنى المفعول، فإنَّ أحسنَ القصص يشتملُ على قصصٍ كثيرة، منه قصص قول يوسف عليه السلام لأبيه: ﴿إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا﴾ وما عقب قوله ذلك من الحوادث[2]، والتّقدير: أيْ: نقصُّ عليك خبر إذ؛ أيْ: خبرَ يوسفَ إذْ ﴿قَالَ يُوسُفُ﴾[3].

فائدةُ ابتداء قصَّة يوسفَ بذكرِ الرؤيا:

رُؤيا يُوسُفَ كانَتْ المُبتَدَأ والمُختَتَمَ

تظهرُ براعة الاستهلال بأجمل صورها في ابتداء القصَّة بذِكْر الرّؤيا الصّادقة الصّالحة الّتي رآها سيِّدنا يوسف عليه السلام، وهي بداية مُشوِّقةٌ ليشير الحقُّ سبحانه إلى أنَّه قد هيَّأ نفس يوسف للنُّبوّة والرِّسالة، فابتدأه بالرُّؤيا الصّالحة الّتي هي من مبشِّرات النُّبوة، كما جاء في حديث السَّيدة عائشة رضي الله عنها: «كان أوَّلُ ما بُدِئَ بِهِ رَسُولُ

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 407، والنّاصريّ، التّيسير: 167/3.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/205.
(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/15.

اللهِ ﷺ الرُّؤْيا الصّادِقَةُ في النَّوْمِ، فَكانَ لا يَرَى رُؤْيا إلّا جاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ»[1]، فذكر هذه الرّؤيا في صدر القصَّة كالمقدِّمة والتَّمهيد للقصَّة المقصودة، وكذلك فيها تنبيهٌ ليوسف ﷺ بعلوِّ شأنه ورفعة مكانته، ولتكون الرُّؤيا الذّكرى الطّيِّبة الَّتي يتذكّرها كلَّما حلَّت به شدَّةٌ أو همٌّ أو غمٌّ فتطمئنّ بها نفسه، وتقرُّ عينه، ويُوقن أنَّ عاقبته سعيدة ونهايته مُبشِّرة[2]. وممّا يلفت الانتباه في افتتاح القصَّة بالرُّؤيا أنَّ تعبيرَ الرُّؤى شيءٌ ورِثُوه من صفاءِ نفوس أسلافهم؛ سيِّدِنا إبراهيم، وسيِّدِنا إسحاق ﷺ، فقد كانوا آل بيت نبوَّةٍ وصفاءِ سريرة[3].

معنى ﴿إِذْ﴾ وإعرابها في الآية:

تَـعَـدُّدُ أوجُـهِ إعرابِ (إذْ) يَزِيدُ المَعْنَى ثَراءً

للمفسِّرين في معنى ﴿إِذْ﴾ في قوله: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ﴾ والعامل فيها أقوال:

الأوَّل: العامل فعل محذوف تقديره: اذْكُرْ، والمعنى: اذْكُرْ يا مُحمَّد إذ قال يوسف لأبيه[4].

الثّاني: ﴿إِذْ﴾ جاءت بدلًا من أحسن القصص، وهو بدل اشتمال؛ لأنَّ الوقتَ يشتمل على القصص، وهو المقصوص، فإذا قصَّ وقته فقد قصَّ[5]، وجعلها القُونويّ بدلَ اشتمالٍ من قصص المحذوفة، والتَّقدير: نحن نقصُّ قصصًا أحسنَ القصصِ إذ قال..[6].

الثّالث: العامل في ﴿إِذْ﴾ فعلُ ﴿نَقُصُّ﴾، ويكون المعنى: نقصُّ عليك الحال[7]، "وفي هذا إخراج لـ ﴿إِذْ﴾ عن المُضيِّ"[8].

---

(1) صحيح البخاريّ: كتاب: التّفسير، باب تفسير سورة: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١﴾، رقم الحديث: (4670)، ومُسلم، صحيح مُسلم برقم: (160).

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/208.

(3) الشّوابكة، غُرَر البيان، ص: 24.

(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/441، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/7.

(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/441.

(6) القُونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/247.

(7) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/219.

(8) درويش، إعراب القرآن: 4/450.

الرّابع: العامل فيه كلمة ﴿ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾، حكاه ابن عطيّة عن مكّيّ، وقال: وهذا ضعيف[1]، وهو ليس بضعيف، إذْ فسّر به الطّبريّ حيث قال: "وإن كنتَ يا مُحمّد، لَمن الغافلين عن نبأ يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم إذْ قال - أيْ: حين قال - لأبيه يعقوب يا أبت"[2].

الخامس: العامل فيه ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ﴾، كما تقول: إذْ قام زيدٌ قام عمرو، وتبقى ﴿إِذۡ﴾ على وضعها الأصليِّ من كونها ظرفًا لما مضى[3]، والتّقدير: قال يا بنيَّ لا تقصص.. حين قال يوسف لأبيه يا أبتِ إنِّي رأيت... وهذا الّذي رجّحه أبو حيّان.

السّادس: ويرى ابنُ عاشور أنَّ العامل يختلف على حسب التّقدير؛ فقال: بدل اشتمال أو بَعْض من ﴿أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ على أن يكون ﴿أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ بمعنى المفعول؛ أيْ: أحسن المقصوص، فإذا حُمل ﴿أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ على المصدر؛ أيْ: أحسن الاقتصاص، فالأحسن أنْ يكون ﴿إِذۡ﴾ منصوبًا بفعلٍ محذوف يدلّ عليه المقام، والتّقدير: اذْكر[4].

معنى اللّام في ﴿لِأَبِيهِ﴾:

تعني اللّام في قوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾ الاختصاص، وهذا هو أصل الوضع لها[5]، والمعنى: أنَّ الرُّؤيا لم يقصّها إلّا على أبيه؛ أيْ: خصّه بها؛ لِما عنده من الرَّحمة والعطف عليه، ولِما يكون من الأب النَّبيِّ من معرفة الرُّؤيا وتفسيرها، ونصحه في كتمانها، إذْ كان في كتمانها خير للولد.

اختصاصُ يُوسُفَ والِدَهُ بالرُّؤيا دلالَةٌ على أنّ لَها شَأنًا عَظِيمًا

(1) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/219.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 15/554.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/236.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/205.
(5) سيبويْه، الكتاب: 4/217، وابن يعيش، شرح المُفصّل: 4/479.

نكتةُ النّداء في ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾:

يُوسُفُ مع أبيهِ، أدَبٌ وبِـرٌّ مع فِطنَةٍ وذَكاءٍ

الأصل أنَّ أداة النِّداء (يا) تكون مع المنادَى البعيد مكانًا، لكن تُستَخْدمُ للقريب إذا كان المقصود الدَّلالةَ على علوِّ مكانة المُنادَى ورفعة منزلته، وهذا ما فعله سيِّدنا يوسف مع أبيه، إذ كان من أدبه أن أشار بهذا النّداءِ إلى علوّ مكانةِ أبيه ورفعة منزلته، وإلى أنّ الكلام الآتي ممّا له وقعٌ عظيمٌ، فينبغي أنْ يهتمّ بسماعه والجواب عنه[1]، فخاطبَ الحاضرَ كما يخاطِب الغائبَ المطلوبَ حضورُه لمزيدٍ من الاهتمام بالخبر الَّذي سيُلقى إلى المخاطَب؛ فاستعار خطاب الغائب والبعيد للحاضر[2].

علّة ذِكْر اسم الابن دون الأب في الآية:

يُـوسُـفُ محـورُ القـصَّـةِ وحـولـه تَـدورُ الأحـداثُ كُلُّها

في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ﴾ ذُكِر اسمُ يوسف دون اسم الأب في هذه الآية الَّتي هي افتتاحٌ للقصّة كاملةً؛ لأنَّ يوسف هو موضوع القصّة من أوَّلها إلى آخرها، ومحورُها الأساسُ الَّذي يتمحور حوله كلُّ القصّة، وباقي الأسماء المذكورة يدور الحديث عنها بمقدار ارتباطهم وقُرْبهم من يوسف عليه السلام.

وكذلك ممكن أنْ نأخذ من سبب نزول السُّورة ما يُبيِّن الحكمة من ذكر اسم سيِّدنا يوسف صريحًا؛ فقد رُوي أنَّ اليهود طلبوا إلى المشركين أنْ يسألوا رسول الله ﷺ عن قصَّة يوسف؛ فنزلت السُّورة[3]، إذن "فالموضوع الأكبر هو قصّة يوسف، وقد تمَّ سردُها بدقّة وإحكام"[4].

فائدةُ التّوكيد في قوله تعالى: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ﴾:

رُؤيـا الأنبـيـاءِ حَـقٌّ، وحـالـةٌ شريفةٌ ومنزلةٌ رفيعةٌ

استعمل النَّصُّ القرآنيُّ هنا عدّةً من المؤكِّدات، وهي الحرف المشبَّه

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/15.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/207.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/118، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 11/7.
(4) المَاتريديّ، تأويلات أهل السُّنّة: 1/234.

بالفعل (إنَّ)، والجملة الاسميَّة، وتقديم المُسنَد إليه ﴿إِنِّي﴾ على المُسند الفعل ﴿رَأَيْتُ﴾، وهذا يستدعي تكرار الإسناد، فيُعطي مزيدًا من التَّأكيد.

والغرضُ من ذلك أنْ يشير إلى أنَّ الَّذي سيقوله أمرٌ مؤكَّد، وأنَّها ليست كرؤى الصِّبيان والغِلمان يتخيّلون أمورًا وقصصًا لم تقع، وكان المنام عظيمًا خطيرًا، فاقتضى المقامُ التَّأكيد فقال: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ﴾؛ أيْ: في منامي، فهو من الرُّؤيا الَّتي هي رؤيةٌ في المنام[1]، فرأى يوسفُ الكواكبَ والشَّمس والقمر ساجدةً له، متمثِّلةً في صورة العقلاء الَّذين ينحنون بالسُّجود تعظيمًا.

معنى الواو في قوله: ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾:

في العطفِ بَيانٌ لسُجودِ الإخوةِ والأبوَيْنِ، وفي المعيَّةِ رَفعٌ للأبوَيْن عَن ذلك

اتَّجه علماءُ التَّفسير في معنى الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ اتِّجاهيْن اثنيْن:

الاتِّجاه الأوَّل: أنَّها حرفُ عطفٍ، وعليه فالشَّمسُ والقمرُ سَجَدا مع الكواكب، وهذا يعني أنَّ أباه وأمَّه كانا مع إخوته من جملة السّاجدين له ﷺ، على احتماليْن اثنيْن:

أوَّلًا: من باب ذِكْر الخاصِّ بعد العامِّ تفصيلًا؛ تكريمًا لهم، فالشَّمسُ والقمر يدخلان في قوله ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا﴾؛ لأنَّهما من الكواكب، ونظيرُه ما جاء في ذِكْر: ﴿وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: 98] وهما من الملائكة بعد قوله: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾ [البقرة: 98] في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: 98]، وبالتّالي يكون عددُ السّاجدين أحدَ عشرَ كوكبًا.

ثانيًا: أنَّ الأصل في الواو أن تعطف المتغايريْن؛ فيكون ما بعدها غير ما قبلها، ويصبح المعنى أنَّه رأى الشَّمس والقمر زيادةً على الأحدَ عشرَ، فيكون عددُ إخوته أحدَ عشرَ أخًا[2].

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/15.

(2) السّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 6/436، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 11/12.

الاتّجاه الثّاني: أنَّها واو المعيَّة، وعليه فإنَّ أباه وأمَّه لم يكونا من السّاجدين، بل كانا مصاحبيْن وحاضريْن وقت سجود الأحد عشر كوكبًا[1]، ويمكن أن يُستدلَّ لهذا أنَّ مقام الأبوَّة والأمومة أرفعُ من أن يُناط به السُّجود للابن؛ لأنَّ الشّرائع السماويّة جميعها ترفع من شأن الأب، إلّا أنَّ ابن عطيّة عدّه مرجوحًا؛ لأنه متى أمكن العطفُ من غير ضعفٍ ولا إخلالِ معنًى رَجَح على المعيَّة[2].

معنى (أل) في: ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾:

في التعريفِ تأكيدُ أنَّ المُشاهَدَ هو الشَّمسُ والقمرُ لا أشعّتَهما

(أل) التَّعريف في قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ للجنس، وفي الأصل أنَّ الشَّمس معروفةٌ والقمرَ معروفٌ، ولا يوجد من جنسهما غيرهما، وبالتّالي سواء جاءا معرّفَيْن أو غيرَ معرّفَيْن فلا ينصرف المُرادُ إلّا لهما، لكنْ لمّا أراد سيِّدنا يوسف ﷺ أنْ يؤكِّد لأبيه يعقوب ﷺ أنّ الَّذي رآه هو حقيقةُ جِرم الشَّمس لا غيرها، وحقيقةُ جِرم القمر لا غيره، وحتّى لا يظنَّ أنَّه رأى أشعَّة الشَّمس وأشعة القمر؛ لأنَّ العرب يمكن أنْ تُطلِق مجازًا على الأشعة اسمَ الشَّمس أو اسم القمر، فجاء النَّص القرآنيُّ بالتَّعريف تأكيدًا وقطعًا لأيِّ احتمالِ تأويلٍ أو مجاز، فالمقام يحتاج إلى هذا التَّعريف[3].

الموقع البيانيّ لـ﴿رَأَيۡتُهُمۡ﴾:

تكرارُ (رَأَيْتُهُمْ) بَيْنَ التَّوكِيدِ اللَّفظيّ والاِستِئْنافِ البَيانِيّ

تكرَّر الكلام عن الرُّؤية في الآية مرَّتين، فقال ﷺ: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ﴾ ثم قال بعد ذلك: ﴿رَأَيۡتُهُمۡ﴾، وهذا فيه ملحظٌ بيانيٌّ مهمٌّ، والجواب يكون من خلال ما يأتي:

الأوَّل: أنَّ قوله: ﴿رَأَيۡتُهُمۡ﴾ فعلٌ وفاعلٌ ومفعولٌ، والجملة مؤكِّدة للجملة الأولى توكيدًا لفظيًّا، وأنَّه أُعيد التّوكيد لمّا طال فصلُ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/443.
(2) السّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 6/436.
(3) الهمذانيّ، الكتاب الفريد: 2/624، وابن تيمية، دقائق التّفسير: 2/116.

الكلام بالمفاعيل بين الفعل والحال[1]، وعادةُ العرب أنَّها تُعيد الكلامَ إذا طال وخشي تناسي الأوَّل، فتعيد ثانيًا تطريةً له واعتناءً به، وتجديدًا لعهده وتأكيدًا له[2]، وليتّصل أوّل الكلام بآخره اتّصالًا حسنًا، ولتقرير المعنى في النّفس؛ لأنَّ الَّذي رآه سيِّدنا يوسف ﷺ أمرٌ مُستغرَب، ويريد أنْ يوضّح لأبيه المقصد من الكلام، وهو الرُّؤيا الحقيقيَّة في نومه، وليست توهُّماتٍ أو أضغاثَ أحلامٍ[3]، وأنَّه رآهم، ورأى سجودهم له.

الثّاني: أنَّه ليس بتوكيدٍ لفظيٍّ، بل هو كلامٌ مستأنَف على تقدير سؤالٍ وقَعَ جوابًا له، كأنَّ يعقوب ﷺ قال له عند قوله: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ كيف رأيتَها؟ سائلًا عن حال رؤيتها؛ فقال: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾[4]، قال السَّمين الحلبيّ: "وهذا أظهرُ؛ لأنَّه متى دار الكلامُ بين الحَمْل على التّأكيد أو التَّأسيس فَحَمْلُه على الثّاني أوْلَى"[5]، والقاعدة المُتّبعة عند أهل البلاغة والأصول والفقه أنَّ التَّأسيس مُقدَّم على التَّأكيد.

وجهُ عود ضمير الجمع في ﴿رَأَيْتُهُمْ﴾:

السّاجدون هم الكواكبُ والشّمس والقمر، أو الكواكب فقط

عود ضمير الجمع (هم) في ﴿رَأَيْتُهُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ يتوقّف على تفسير الواو في قوله سبحانه: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾؛ فإنْ فسَّرنا الواو بأنَّها حرفُ عطفٍ؛ فإنَّ الضَّمير يعود على الكواكب والشَّمس والقمر، ويكون المعنى: ورأيتُهم؛ أيْ: الكواكبَ والشّمسَ والقمرَ لي

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 13/7، ومثله ما جاء في قوله تعالى: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ۝٣٥﴾ [المؤمنون: 35]، وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١١٩﴾ [النّحل: 119].

(2) المجاشعي، النكت في القرآن الكريم، ص: 264، والزّركشيّ، البرهان: 3/14.

(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 13/7.

(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/444.

(5) السّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 6/437.

ساجدين، وهذا على القول بأنّ جملة ﴿رَأَيْتُهُمْ﴾ توكيدٌ لفظيٌّ لجملة ﴿رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾.

وإنْ فسَّرنا الواو بأنَّها للمعيَّة، فيكون الضَّمير (هم) عائدًا على الكواكب فقط لا على الشّمسِ والقمرِ، والمعنى: ورأيتُ أحد عشر كوكبًا لي ساجدين، وهذا على القول بأنّ جملة ﴿رَأَيْتُهُمْ﴾ استئنافٌ بيانيّ على تقدير سؤالٍ وقع جوابًا له، كأنّ يعقوب ﷺ قال ليوسف عند قوله: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾: كيف رأيتها؟ سائلًا عن حال رؤيتها، فقال: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾[1].

نكتةُ ضمير الجمع في الآية الكريمة:

استعمل النَّصُّ القرآنيُّ ضميرَ (هم) وكلمة ﴿سَٰجِدِينَ﴾ وهما للجمع المُذكّر السّالم، والأصل أنّه لا يُجمع جمع المذكر السّالم إلّا إذا كان المفردُ عاقلًا، فلم يَقُل: (رأيتُها لي ساجدةً أو ساجداتٍ)، كما في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ [النّمل: 88]؛ لأمور؛ هي:

سُجودُ الكَواكِبِ والشَّمسِ والقَمَرِ كانَ سُجودًا حقيقيًّا بانحناءٍ وخضوعٍ

الأوّل: أنَّه لمّا كانت الحالة المرئيَّة من الكواكب والشَّمس والقمر وهي حالة السُّجود، وهذه لا تكون إلّا من العقلاء؛ فأنزلها منزلةَ العقلاء، فأطلق عليها ضمير (هُم) وصيغة جمعهم[2].

الثّاني: لأنّ هذه الكواكب لمّا استجابت لأمر الله، فهي إذن تعقل أمر الحقِّ، كما حكى الله عن السّماء في سورة الانشقاق عندما قال الله تعالى: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢﴾ [الانشقاق: 2][3].

الثّالث: للإشارة إلى أنَّ السّجود كان حقيقيًّا بمعنى: وضع الجبهة على الأرض؛ أيْ: سجود انحناءٍ وخضوع[4]، لا مجازًا على الخضوع فقط.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/444.
(2) السّيرافيّ، شرح كتاب سيبويْه: 1/154، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/208.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 11/6846.
(4) حجازيّ، التّفسير الواضح: 2/160.

الرّابع: لأنّ كون ذلك للعقلاء غالبًا لا مُطَّردًا، كما قال تعالى عن الأصنام: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾ [الأعراف: 198][1].

الخامس: لكون الرُّؤيا رمزًا لسجودٍ سيكون من إخوته العقلاء.

عِلَّةُ ذِكْرِ الشَّمسِ والقمرِ:

الأُمُّ والأبُ للولَدِ كالشَّمسِ والقَمرِ للكوْن

ذَكَرَ النّصُّ القرآنيُّ الشّمس والقمرِ وميّزهما عن بقيّة الكواكب، وأشار بهما إلى الأمِّ والأب؛ للدّلالةِ على مكانةِ الأمّ والأب، ووجوب الاهتمام بهما، وتقديمهما بالبرِّ والفضل والإحسان.

وإذا كان المُرادُ بالشّمسِ الأمّ، وبالقمرِ الأب؛ فلأنَّ الشَّمس مؤنّث، والقمر مُذكَّر، ولأنَّ الشَّمس تمدُّ الأرض بالدّفء والحرارة، كما أنَّ الأمَّ تمدُّ ولدها بالدِّفء والحنان، وأمّا إذا كان المُراد بالشَّمس الأب، وبالقمر الأم؛ فلأنّ الشَّمس مركز النِّظام الشَّمسيّ، وتمدُّ القمر بالنُّور، كذلك يعقوب هو مركز الأسرة الّذي يمدّها، وتعتمد عليه.

معنى اللّام في قولِه ﴿لِي﴾:

سجودُ المخلوقاتِ الشَّريفةِ ليوسُفَ كنايةً عن عظمةِ شأنه

للعلماءِ في معنى اللّام في قوله تعالى: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ رأيان:

الأوَّل: أنَّها للاختصاص[2]؛ فالسُّجودُ وقع خاصًّا بسيِّدنا يوسفَ، وإكرامًا ورفعةً له عليه السلام.

الثّاني: أنَّها بمعنى: من أجل، مثل: ﴿وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ [يوسف: 100]؛ أيْ: خرُّوا من أجله سجَّدًا؛ شكرًا لله الّذي أنعم عليهم بيوسف عليه السلام، وجمع شملهم وغفر ذنبهم، وهذا كقولك: فعلْتُ ذلك لِعُيون النّاس، أيْ: من أجْلِ عُيونهم، وأكْرمتُ فلانًا لَك، أيْ: من أجلِك[3].

نكتةُ تقديم ﴿لِي﴾ في قوله: ﴿لِي سَٰجِدِينَ﴾:

اهْتِمامٌ وعِنايَةٌ بيوسفَ عليه السلام وتَشْويقٌ بما أمر الله لأجله

أفاد تقديم البيان القرآنيّ لشبه الجملة ﴿لِي﴾ الاهتمام والعناية

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/208.
(2) سيبويْه، الكتاب: 4/217، وابن الخبّاز، توجيه اللُّمع، ص: 233.
(3) الواحديّ، البسيط: 12/251، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة: 10/302، وابن منظور، لسان العرب: 3/204.

بالمُقدَّم ورفعة شأنه، وبما هو أهمُّ؛ لأنّه رأى الكواكب على حالةٍ من التَّعظيم له، فاقتضى أن يُقدِّم نفسه أولًا[1]، والتَّشويق للمُؤخَّر، وكأنّ النَّفس لمّا تسمع ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي﴾ تتشوَّق لمعرفةِ حال هذا المرئيِّ.

وأيضًا أفاد مراعاة الفاصلة القرآنيَّة[2]، بما يُحقّق إحكام اللَّفظ؛ أيْ: التّطريب، وراحة النّفس بنغمها الموافق لفواصل السّورة مثل: ﴿ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣﴾ [يوسف: 3]، ﴿مُّبِينٌ ۝٥﴾ [يوسف: 5]، ﴿حَكِيمٌ ۝٦﴾ [يوسف: 6]، ﴿لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧﴾ [يوسف: 7].

الموقع الإعرابيّ لـ ﴿سَٰجِدِينَ﴾ في الآية:

اتَّجه المفسِّرون في إعراب كلمةِ ﴿سَٰجِدِينَ﴾ اتّجاهيْن:

رؤيــةُ يـوسُـفَ سجودَ الْكَواكِبِ والــشَّــمــسِ والْقَمَرِ رؤيةٌ حقٌّ

الأوَّل: أنَّها حالٌ من الهاء والميم في ﴿رَأَيْتُهُمْ﴾، بمعنى: رأى الكواكب والشَّمس والقمر حالة كونهم ساجدين له[3]، والرُّؤيا هنا رؤيةٌ بصريّةٌ، وليست قلبيّة[4].

الثّاني: أنَّها مفعول به ثانٍ لفعل (رأيتُ)، باعتبار أنَّها تأخذ مفعولَيْن، وأنَّ هذه الرّؤيةَ قلبيَّةٌ؛ لأنَّها في المنام[5]، ويكون مفعول الأوَّل محذوفًا[6].

وقد ردَّ المُنتجَب الهمذانيّ هذا الإعراب، وقال: لا يصحُّ أنْ يُعرب مفعولًا به ثانيًا؛ لأنَّ ﴿رَأَيْتُ﴾ وإن كان من الرّؤيا، فهي من رؤية العين من جهة المعنى دون رؤية القلب[7].

نكتة تأخير الشَّمس والقمر:

جاء في النَّصِّ القرآنيِّ ذِكْرُ الشَّمس والقمر بعد الكواكب، مع أنَّ

تَأخيرُ الشَّمْسِ والــقَــمَــرِ عَـن الكَواكِبِ ارْتِقاءٌ مـن الأدنَى إلَــى الأعلَى

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/208.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/252.
(3) مكّيّ، مُشكِل إعراب القرآن: 1/378.
(4) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 6/379.
(5) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 13/347، والدّعّاس، إعراب القرآن: 2/78.
(6) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 4/542.
(7) الهمذانيّ، الكتاب الفريد: 3/546.

الشَّمس والقمر أكبرُ الكواكب؛ عطفًا للخاصّ على العامِّ[1]، وتَرقِّيًا من الأدنى إلى الأعلى لفضلهما، واستبدادهما بالمزيّة على غيرهما من الطّوالع، وأمّا بالنِّسبة للشَّمس والقمر فلم يقع التّرقّي؛ لأنَّ عادة القرآن إذا اجتمعا قُدِّمت الشَّمس على القمر[2]، فهي أعظم جِرمًا، وأغرب سيرًا، وأعلى مكانًا، وأكثر نفعًا من القمر، والقمر يستمدّ نوره منها[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الكوكب والنّجم:

لم يفرّق اللّغويّون بين الكوكب والنّجم، فقد عرّفوا الكوكب بالنّجم، وعرّفوا النّجم بأنّه كوكب[4]، "أي: كلٌّ منهما يُطْلَقُ على الآخَرِ"[5]، ويَظهر هذا من خلال المعنى اللّغويّ لكلٍّ منهما:

النّجم أعمُّ من الكوكب، فالنّجم هو الكوكب الطّالع الظّاهر

الكَوْكَبُ: أصلُ (كب) يدلُّ على جَمْعٍ وتَجَمُّعٍ[6]، والكَوْكَبُ: شِدّة الحرّ ومعظمهُ، والكَوْكَبُ معروفٌ من كَواكِبِ السّماءِ، ويُشَبَّه به النَّور فيُسَمَّى كَوْكَبًا، والكَوْكَبُ: النَّجم[7]، والكَوْكَبُ من الشَّيْءِ: مُعْظَمُه، ويُقالُ يَوْمٌ ذُو كَواكِبَ بالفتح: أي ذُو شَدائِدَ، كأَنَّهُ أَظْلَمَ بما فيه من الشَّدائِد، حَتَّى رُئِيَ كَواكِبُ السَّماءِ[8]، والكَواكِبُ: النّجوم البادية، ولا يُقال لها كواكب إلّا إذا بدتْ[9].

النَّجْمُ: النّون والجيم والميم أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على طُلُوعٍ وظُهُورٍ[10]، نَجَمَ الشّيء يَنْجُمُ: طلع وظهر، والنَّجْمُ: اسمٌ لِكُلِّ واحِدٍ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/419، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/237.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/238.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/371.
(4) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (كوكب)، (نجم).
(5) الزّبيديّ، تاج العروس: (ككب).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كب).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (كوكب).
(8) الزّبيديّ، تاج العروس: (ككب).
(9) الرّاغب، المفردات: (ككب).
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نجم).

من كَواكِبِ السَّماءِ، وهو بالثّريّا أخصُّ[1]، وكلُّ منزلٍ من منازلِ القمر سُمِّي نجمًا، وكلُّ كوكبٍ من أعلام الكواكب يُسمَّى نجمًا، والنُّجومُ تجمعُ الكواكب كلَّها[2]، والنَّجْمُ: الكَوْكَب الطّالع، والنَّجم أيضًا ما لا ساقَ له من النّبات (ما نَجَمَ على غير ساقٍ)، والنَّجْمُ أيضًا: الثُرَيّا، والنَّجْمُ: الوقتُ المَضْرُوب، والأصْلُ، وكلّ وظِيفَةٍ من شيء[3].

وعلى الرّغم من هذا التّرادف بين الكوكب والنّجم وجواز إطلاق أحدهما على الآخر عند علماء اللُّغة، إلّا أنّه عند إمعان النّظر في معانيهما واستعمال القرآن لهما؛ فإننا نلاحظ بعض الفروق الدّقيقة بينهما، وذلك على النّحو الآتي:

أولًا: النّجم أعمُّ من الكوكب؛ فالنُّجومُ تجمعُ الكواكبَ كلَّها، والنَّجْمُ: اسمٌ لِكُلِّ واحِدٍ من كَواكِبِ السَّماءِ.

ثانيًا: أصل مادة (نجم) تدلّ على طُلُوعٍ وظُهُورٍ، فالنّجم: هو الكوكب الطّالع، وبالتّالي: يُقال للكوكب إذا ظهر: نجمٌ؛ أيْ: (كان مُضيئًا ومُنيرًا)، ولذا ذَكَر القرآن الكريم النّجوم دون الكواكب في اعتماد العرب عليها في تحديد الوقت والجهة في قوله: ﴿وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ١٦﴾ [النّحل: 16].

(1) ابن منظور، لسان العرب: (نجم).
(2) الخليل، العين: (نجم).
(3) الفِيروزابادِيّ، بصائر ذوي التّمييز: 5/19 - 20.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والعشرون، سورة هود من الآية 115 إلى سورة يوسف الآية 55
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والعشرون، سورة هود من الآية 115 إلى سورة يوسف الآية 55
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 22 ، 812 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-19-7
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 22 : المجلد الثاني والعشرون، سورة هود من الآية 115 إلى سورة يوسف الآية 55.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-19-7
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-3382819 بتاريخ 2024/02/13م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»